

صرصار الحانة

طبيوني العربي شريف

---

ماذا يحدث لو أن شيطاننا تسلل إليك في وحدتك المنعزلة ذات يوم  
أو ذات ليلة وقال لك :هذه الحياة التي تحياها أنت الآن، والتي  
عشتها من قبل، سوف تعيشها مرة ومرة ومرة، وفي أزمان بغير عدد.  
ولن يكون فيها شيء جديد. بل كل ألم وكل فرح، وكل فكرة وكل  
زفرة وكل صغيرة مما لا يمكن التفوه، وجميع الأحداث العظيمة في  
حياتك لابد أن تعود إليك من جديد. كل شيء بنفس التسلسل  
وبنفس النتائج.

ألن تطرح نفسك أرضاً وتصر على أسنانك وتلعن الشيطان الذي

يتكلم على هذا النحو؟  
فريدريك نيتشه

---

أول عبارة في التوراة تقول: في البدء كانت الكلمة، والكلمة هي العقل والحكمة التي من عند الله...

أيا كانت هذه الكلمة فهناك شيء يقول لي أن تلك الكلمة كانت "دلتا تسعة رباعي تيتراهايدروكاناينول" فصارت الكلمة حشيش.. وصار الحشيش دخاناً.. آمين...

لو قلت مثل هذا الكلام في العصور المظلمة لتم احراقى حياً بتهمة الهرطقة، لكن من نخدع يا صديقي فجمال هذه المادة الكيميائية

آسر... إنها الأوديسا الكونية الكيميائية الأكثر سموا التي عادة ما  
أبدأ جلستي الليلية بتدخينها...

الساعة العاشرة، الغرفة التي أمكث بها أشبه بأحد معابد دهلي...  
فرغم أن القذارة منتشرة في كل أرجاء الغرفة... إلا أن البخور  
الصادر من السجائر ييث في النفس الراحة والانتفاء.. الأجواء  
ضبابية والمكان هنا أشبه بالمختبر المجهور، ونظرة بسيطة على أسفل  
السرير ستخبرك بالكثير.. فهو أشبه بصندوق الشوكولاتة، لا تدري  
أبدا ما قد تجده هناك... الأوعية الزجاجية التي أستخدمها كغليون  
مبعثرة في كل مكان، الأوراق، الحشيش، الشيشة والمزيد من  
الحشيش.. بالإضافة الى زجاجات الكوكايين الفارغة بحجم غرام  
وملاعقها المغطاة بالمخاط والدم، وان حالفك الحظ ستجد عبوات  
من الزانكس والفاليوم أيضا..

وكما ترى أنا غارق في الرذائل حتى أخص قدمي، وكل هذا طمعا  
في اقتفاء خطوات صديقي للجحيم...

هل تريدون سماع قصة ممتعة؟

أظن أنكم اخترتم التوقيت المناسب...

فأنا على وشك انهاء الجلسة... ودائما ما يكون الختام بتلك الحبة...  
الحبة المباركة ذات نقش الأفعى الذي يلتهم ذيله... التي لن تجدها  
عند أي أحد سواي... حبة من المفترض أن أبتلع رُبعاها الا أنني  
ابتلعتها كلها...

مرت نصف ساعة، وقد بدأت تصلني أصوات نقط الماء المتقاطر  
من صنبور الحمام..

على الحائط برص يلتهم صرصورا... ثم قطرة الماء.. صوتها يرفع  
الستار عما يلي..

أتأمل تمثال يسوع المصلوب فوق التلفاز..

أركز نظري فيه..

دائما ما اجده هناك، أمامي.. فوق التلفاز، في المرحاض.. أو في كل مكان...

مرحبا بالمسيح...

لو كانوا يمنحون براءة اختراع لهذه الأشياء، لأعطيت للعقار اسم المسيح كعلامة تجارية، فمن كان ليتخيل ان ممنوعات كهذه ستزيد المرء ايمانا...

أتأمل إكليل الشوك الذي يحيط برأسه..

الشوك يجعلك تشعر كما لو أنك غارق في حوض من النمل الأحمر الناري..

تنبعث من التمثال هالة تجعل الغرفة تبدو كما لو أنها تهتز..

وتهتز ..

بيطاء ...

من الأمام إلى الخلف..

من اليمين إلى اليسار...

وهكذا دواليك..

تحس بالتمثال يدق كيائك بدون استئذان، كعرض يفرض عليك

الانتباه...

لم أعد أصغي لقطرات المياه، كنت مأخوذاً بالعرض أمامي، إكليل

الشوك بدأ بالدوبان لأسفل، ثم بدأ- أشواكه بالالتفاف بشكل

حلزوني حول وجه التمثال البائس..

وتلتف..

وتلتف...

لتنتهي إلى أنف التمثال المقوس في النقطة التي يستدق فيها.. مشكلا

دوامة من العُسر وصفها..

دوامة بالإمكان ركوب أمواجها..

بركوبها ستشعر كأنك سمكة سلمون تكافح ضد التيار..

سمكة انتحارية في مدينة ملاهي تعبر بنا نحو فم الدب مباشرة ولا

تبالي...

لمحت بطرف عيني شبح في زاوية الغرفة قطع علينا المشهد...

ثم بدأت المشاهد والصور بالتغير، كأنها إعادة إنتاج لفيلم لف

كولشوف.. والشيء الثابت الوحيد هو أنا.. ألف عين دموية...

ألعاب نارية... شواهد قبور مضيئة... والكثير الكثير من  
الحشرات.. ثم يعود بنا المشهد الى يسوع مجددا.. ويبدو أن للتمثال  
مفاتيح الآن... أُصفر اعجابا بثدييه اللذان بدءا بالذوبان... ثم  
التفت بعنف يبدو أنى رأيت شبحا مجددا، لكنه معطفي لا غير.. وفي  
الوقت التي بدأت فيه أوراق الجدران بالانتفاخ مشكلة فقاعات  
سرطانية كبيرة كبطارية منتهية الصلاحية.. تراءت لي رؤية في الأفق  
سلسلة من الرؤى الواضحة.. تتقمص طابع الذكريات..

شارلي..

دعوني أعرفكم بشارلز...

كنت أجده دائما هناك عند مدخل الميتم..

ميتم؟



آه هذا يفسر الكثير..

أقصد أن في داخل كل واحد منكم شارلوك هولمز صغير يقوم  
بالتحليلات ويقول.. أليس لهذا الفاسق والدين؟

ثم ستكون لكم نفس ردة فعلي لما تتضح حقيقة أنهم أموات.. لأنني  
كنت أعيش في مآتم كما تعلم... وجودهما من عدمه لن يزيد ولن  
ينقص من القصة شيئاً...

الآن لنعد لشارلي...

إنه هناك والصليب لا يفارق يده كالعادة... يضمه بقوة نحو قلبه  
ويدمدم بكلمات غير مفهومة، اعتقدت أنه مصاب بوسواس قهري  
أو ما شابه... فلم أره يوماً في الكنيسة، لكنه لا يلبث كثيراً حتى يهدأ،  
خاصة لما يراني...

والآن يجب عليّ تغيير أسلوبِي في السرد قليلاً... وأعتقد أنك لا تمنع، فعوض أن أحكي عن تفاصيل حدثت بالفعل، سأحكي عنها كما لو أنها ستحدث لأول مرة... فمن المزعج أن تقرأ لشخص وأنت تعلم أنه يعلم ما حدث وما سيحدث..

تقدمت نحوه ومددت يدي، ثم أبادر الحديث:

- آه، صباح الخير تشارلي... كيف الحال اليوم!؟

- عظيمة... ماذا عنك؟

- سأتأخر... وسيغضب مني المشرفون مجدداً، ربما أراك في

الاستراحة.. هذا إن لم أعاقب!

هذا هو حال أحاديثنا دائماً، أقصر من متوسط عمر جندي سوفياتي يتوجه لخوض غمار معركة الستالينغراد... لكنه يبقى صديقي الوحيد مع ذلك، صداقة أغرب من أن تكون حقيقية، فهو بالنسبة

لي كالكريبتونايت لسوبرمان.. خطان متوازيان قدر لهما الالتقاء.. لا  
ميول شاذة في القصة صدقني، فقط كتمانها يجعل من المستعصي أن  
تعرف أي شيء عنه.. ما عدى اسمه وما يبدر عنه لن تأخذ منه  
شيئاً.. لم يخبرني أبداً ماذا يفعل ليتلقى العقاب أو عن نوعية العقاب  
الذي يتعرض له، فلم أسمع بشخص يُعاقب هنا عداه..

وهذا ما يجعله صديقي.. فغموضه هو ذاته ما يقربه مني.. فلو فكَّت  
تلك الشيفرة يوماً سينتهي بذلك كل شيء... فالهالات المحيطة  
بعينه توحى بالعنوان، العنوان مشوق وجذاب لكن المحتوى  
مجهول...

انقطع خط الذكريات... ثم أعيد تشغيله مجدداً.. عقلي يتلاعب بي  
كالعادة..

فجأة تستيقظ من سباتك، بالكاد تتذكر شيئاً... يخبرونك أنه من  
اليوم أصبح اسمك "ليام"، وعليك نسيان أي شيء قد يتعلق  
بموطنك...

وأهم قاعدة هنا هي

"لا تسأل"...

مرت عليّ أيام عصيبة...

عشر سنوات قضيتها في الميتم... أتلقى شتى أنواع الأسئلة...

يضعونك مكمم الفم في غرفة مغلقة، ويخبرونك ألا ننزع القناع مهما  
كانت الظروف، -كأنه كان لدينا الخيار- فلو نزعنا القناع سيتحول  
لوننا للأزرق وسأموت، لم أكن أعرف ما يعنيه الموت، لكنه بدا شيئاً  
سيئاً..

تمر لحظات ثم يدخل الطبيب للغرفة، بالإضافة لمساعدين يعملان على تثبتي إن اقتضى الأمر، لم أستطع تمييز وجوههم، ولا ذكرياتي استطاعت ذلك... يرتدون بدلات بيضاء مجهزة من أخصص القدمين لأعلى الرأس، وقناع الغاز لا يفارق وجوههم...

يلفون مرفقي بقطعة شاش، ويضعون عليها عشرين قطرة من محلول لم أدرك ماهيته، لكن تأثيره فوري، ستشعر كأن الغرفة تسحقك، أنت محاصر بدون مفر... بالكاد يمكنك التنفس ولا حتى الشعور بالقدرة على التنفس...

في الوقت الذي أبدأ فيه بالتعرق يشبني أحدهم ويضع الآخر على جبيني قطبين كهربائيين.. وهاته هي إشارة بدأ الاختبار...

- هل تريد معرفة أين أمك؟

- لا

- ما اسمك؟

- ليام

- من أين أتيت؟

- لم أولد بعد

- هل تذكر أي شيء؟

- لا

وبطريقة ما كان سؤاله المفضل هو:

- هل تحرش بك أحدهم من قبل؟

فقد كانت لديه قناعة كأبي طبيب نفسي يُقدّر مهنته، أن كل أزمة

نفسية سببها الرئيسي "التحرش الجنسي..."

لكن السؤال المطروح هنا هو:

- لماذا كانوا يفعلون ذلك لي...؟

أعتقد أنه عليك سؤالهم بنفسك، فقد سئمت الصدمات الكهربائية... أو بالأحرى كادت تفقدني عقلي وأنا لم أبلغ العاشرة حتى...

- لماذا تفعلون هذا بي؟

بمجرد التفكير بذلك، ستتعرض لصدمة... اجب إجابة خاطئة  
و... صدمة.. تردد في الإجابة و... صدمة..

يطرحون عليك شتى الأسئلة، ولا يقولون لما يفعلون ذلك، فقط تعلم الا تسأل...

أي بادرة للفضول ستكون عواقبها وخيمة...

تشارلي كان الوحيد من بين أطفال المأتم الذي احتفظ بذكرياته..  
على عكسي أنا الذي أستيقظ كل صباح لألقي عليه التحية كأن شيئاً  
لم يكن... من العجيب أنني لم أسأل يوماً عن سبب الصداع وتلك  
العلامات على يدي كأني ولدت بها...

تشارلي تحمل كل هذا وحده.. بينما أنا كنت لا أذكر شيئاً...  
ومع مرور الوقت كان لهم ما يريدون، أخيراً نتيجة الاختبار مثالية  
للمرة 365 توالياً، ولا وجود لأي إجابة خاطئة... كما لم أفكر بأي  
شيء يتعلق بماهيتي منذ سنوات... مما يعني أنني جاهز...

- من هم؟

بالطبع، الإجابة ستكون بالأمر... وهكذا قضيت وقتي في الميتم بين  
الدراسة والأكل والنوم والاختبارات اليومية...



انقطع جبل الذكريات مجددا... المكان مظلم في الغرفة... مددت  
يدي الى تحت السرير لعلّي أجد شيئا كفيل بتهذيب الصداق الذي  
أقبل بلا دعوة... لكن ذراعي أبّت الاستجابة... وبدأت أنسحب  
مجددا إلى هناك.. الى الميتم...

استيقظت مجددا، دائما ما أبدأ يومي بالتذمر والحال أصبح روتينيا..  
شارلي هناك كما عهدته... قررت أن اليوم سيكون مختلفا، ألتفت إليه  
وأنطق أولا بدون تحية:

- آه، أشعر أنها ستكون المرة الأخيرة لي في هذا المكان يا  
تشارل.. فمئذ سنوات وأنا أشعر بأنه يتوجب عليّ  
المغادرة...

كنت صادقا، بل خائفا... فتح فاهه لقول شيء، لكن يبدو أنه سحب  
كلامه.. صمت لبرهة لاستدعاء كلمات جديدة، ثم قال:

- أنت تكرر نفس الكلام يوميا، لكن إلى أين؟

أتوجه صوبه واربت على ظهره وأقول:

- آه لو كنت أدري، المغادرة فحسب...

تلقت مجددا، ومد يده لي بكيس بلاستيكي محكم الاغلاق وقال:

- اسمع نحن نعرف بعضنا منذ فترة، وأظن أنني أملك

بالضبط ما تريد.. تذكرة ذهاب ولن تعود كما كنت أبدا..

فقط لفها، أشعلها وتنفسها...

نظرت للكيس الذي يحمله، إنها مخدرات! ارتبكت، ثم رفعت

صوتي قائلاً:

- شارلي، هذا هراء أبعد هذا الشيء عني.. أنا مستقيم كما

تعلم!

لم يبد شارلي أي ردة فعل كما لو أنه توقع الأمر.. وقال:

- هذا يبدو مملا بالنسبة لي، من تكون بوذا...؟ لقد نزا نصف

فتيات الصين قبل ان يجد طريقه وأنت تحدثني عن

الاستقامة!

- ولد بوذا في اليابان ومات فيها...

- ظننت ان ذلك حدث الهند، بل هل كان موجودا حقا؟

- لا يهم، لكل زمن بدعته...

نظر الي تشارلي بنظرة يملأها التصميم، وقال بنبرة ساخرة:

- هيا لنعد لموضوعنا، لا تكن جباناً!

- تشارلي! ما الذي دهاك، أين ذلك المتوحد الذي كنت

أعرفه...؟ لا أستطيع فعل هذا...

خفض من صوته، وبدأت عليه الخيبة..

- ليام.. أنت لم تفهم بعد.. أنت مجرد جبان تم ترويضه، وأنا هنا أعيد لك المخالب التي سلبوك إياها... أنا لا أقول لك تكلم مثلي، أو تصرف مثلي... على أي أساس قد أقول لك ذلك، فدربي ليست دربك... والطريق بداخلنا بالفعل... لكن ثق بأن طرقنا تداخلت... وهذا أمر لا يمكن تغييره... نحن لا نعلم عن بعضنا الكثير، لكن عليك أن تعلم ان مثَلنا في هذه الحياة كمَثَل شخص يطارده خنزير اريمنشوس لا يدري ما يفعل للخلاص... فيظن ان الركض في طريق مستقيم سينجيه.. الى ان يتم سحقه تحت حوافر المبادئ، الالتزامات، المسؤوليات العقائد، والعادات وكل ما من شأنه أن يؤدي بالإنسان للانهيـار والجنون... لا يوجد

خلاص في هذه الطريق... عليك فقط أن تسأل نفسك...

كيف تمكن هرقل من التخلص من ذاك الخنزير؟

- بالطبع، تخلص منه لأنه كان نصف إله...

- يبدو أنك لم تفهم المغزى بعد كل شيء، فقط اتبع غرائزك

وارقص معها حول خطك المستقيم... كأنك سكير يقف

فوق خط اختبار فحص الكحول... تأرجح بزهو نحو

الأسفل.. هذا سيربك الخنزير لأنه يفتقر للمرونة وهكذا

ستعبر...

- الى أين؟

- هذا مضحك، لقد أعدت طرح نفس السؤال... اسأل

نفسك فأنت من تريد الذهاب..

لقد كان كلامه مؤثرا، وإن لم أفهم نصفه.. نظرت اليه بنصف  
ابتسامة وقلت:

- شارلز، ربها علينا أن نتحدث أكثر مما نفعل عادة. والآن  
أريدك أن تعلمني... بصفتك صديقي..

أبدى صديقي ردة فعل معاكسة لما كنت أتوقع، فقد بدى عليه  
الحزن... وقال بعد لحظات من الحزن

- من المؤسف أننا لا نستطيع ذلك، لا نستطيع التحدث بعد  
الآن.. فقد عرضت عليك هذا، لأنها كما يبدو أنها آخر  
محادثة بيننا..

- كيف يمكن ذلك؟

- سنموت...

وتلك كانت أطول محادثة دارت بيننا...

انقطع حبل الذكريات، مجددا... ثم عادت الإشارة..

حينها كنا نبلغ من العمر السادسة عشر، تسللنا إلى تلك الغرفة..  
هناك دائما غرفة لا ينبغي لنا ولوجها.. إنها تلك الغرفة التي أخفاها  
والدك عنك لن يخبرك عنها أبدا، هي بمثابة الشخص الذي أخبرتك  
حبيبك الا تقلق بشأنه... لكن هذه الغرف وجدت من أن تختلس  
النظر فيها لتكتشف مؤتمر لخاحامات اجتمعوا ليخططوا سرا للمؤامرة  
يهودية جهنمية من أجل الهيمنة على العالم، ونشر الأوبئة والسيطرة  
على العالم وأمواله.. سيناريوهات مثل هذه أصبحت مستهلكة،  
ولسخرية القدر هذا ما حصل بالفعل... فقد فتحنا الباب وعبرنا  
بعض الأروقة حتى انتهى بنا الطريق إلى ذلك السرداب الذي  
يجتمعون فيه حول تلك الطاولة.. لا مهلا لم تكن طاولة، بل كان

حوض زجاجي شفاف كبير مكعب الشكل، مليء بسائل بغيض..  
وفي السائل يسبح جسد فتي عاري، لو كانت لك دوافع بيدوفيلية  
خفية فلسوف تستعر بمجرد نظرة خاطفة لهذا الجسد العاري المخلل  
في المحلول... ومن الحوض تمتد أنابيب تؤدي إلى آلة تعمل تصدر  
صوتا مقيت.. هناك شيء لا إنساني يجري هنا.. وعلي اكتشافه، لكن  
علي أولا كتم صوت صراخ شارلي...

حدث تشويش في ذكرياتي، ثم عادت الصورة... كنت أنا من  
صرخت، وشارلي هو من كتم أنفاسي حتى لا يفتضح أمرنا... جرني  
إلى غرفة أخرى.. وأمرني بالصمت... تأملت الغرفة من حولي..  
ويبدو أنها غرفة أبحاث مالِك الميتم... هناك العديد من المخطوطات  
مبعثرة في كل الأرجاء، تتقاطع كل تلك الكتب والوثائق في نقطة  
واحدة... نقطة حلم بها كل الكيميائيين والفلاسفة والسحرة..



نقطة سعى اليها هتلى وسعى اليه جلعامش من قبله، حجر  
الفيلسوف.. هذا ما أخبرني به شارلي... ويبدو أنه يتوجب علينا  
الإسراع...

إذا كان للهولوكوست غاية بعد كل شيء، ما عدى كونه أمر ممتع  
طبعاً.. خلاصة ملايين من البشر تتجمع في كيان أسر دبق يشبه  
الزئبق في ظاهره يقبع أمامنا في قارورة زجاجية... سر الخلود وينبوع  
الشباب الدائم.. الا ان تركيبته ليست مكتملة، لهذا سمحت لنفسي  
بسرقته مع تشارلي واحراق المكان كله واقنعت نفسي بأني أقدم  
خدمة للبشرية.. الا ان ذلك لم يكن الا مجرد ارضاء للذات.. فالخلود  
أمر مغر، ولم أستطع مقاومته.. وأفضل ما في الأمر أنه سيتغذى على  
حيوات الآخرين.. فاذا الطبيعة سمحت بهذا، فلا أمانع بالطبع..  
اقصد أنه هناك ما يكفي من البشر وطفح كيل الطبيعة فلجأت لي..

انقطع حبل الذكريات، مجددا...

لقد مات، وحدث ذلك بعد يومين من هذه المحادثة..

يبدو أنهم لن يسمحوا لنا بالفرار... ليس مع خلاصة تجاربهم...

الأمر سخيف، فقد فعلو نفس الشيء وسرقوا كل شيء من

المختبرات النازية... فما الذي يمنعنا من ذلك؟

صوت فرامل، تبعه صوت تصادم مع جسم بشري.. رائحة المطاط

المحروق تملأ المكان، بالإضافة لرائحة الموت...!

لقد كان تشارلز!!

لم أدرك ما حصل إلا بعد فوات الأوان، فقد حصل كل ذلك في جزءاً

من الثانية.. صدمته شاحنة لنقل البضائع وأنهت مسيرتها فوق

جثته... لم ترحمه البتة، والمشهد في ذاكرتي يوحى بذلك.... هرعت

إليه وحاولت سحبه من تحت الشاحنة.. لكن ذلك كان مستحيلا،  
بل زاد الأمر سوءا... فقد كان عالقا بين العجلتين الخلفيتين  
للشاحنة..

حدث كل هذا والسائق منشغلا بتصوير الإشارة الحمراء!! من  
الواضح أن الإصابة كانت مميتة ولم يرد التورط في الأمر.. وجهاز  
تشارلي الهضمي الممتزج بالدماء يؤكدان ذلك.. لكن بقي له من  
الأجهزة ما تمكنه من القاء آخر كلماته... فتحت عقدة لساني  
وبادرت بالكلام:

- هيا تشارل أرجوك قل لي أنك بخير.. لا تمت أرجوك، لن  
أسخر منك في غيبتك بعد الآن.. سنزور الكنيسة يوميا..  
وسنأكل ما نريده... لا تمت رجاء، لا تمت ركز معي.. لا  
تمت...

ثم وكخاتمة للمشهد... نظر إلي، وارتسمت على وجهه بسمة خفيفة  
وأعلن بها آخر كلماته :

- وقت الارتجال... لا تدعهم يتحكمون بالسيناريو، فقط  
أخرج عن النص...

هذا كل شيء.. ثم اختفى للأبد... بهذه البساطة.. لن يتذكره أحد  
على الأرجح.. فهو ليس سفاحا يمجّدونه، ولا لاعب كرة قدم  
مشهور يهتفون باسمه.. كما لم تسنح له الفرصة أبدا ليضغط على زر  
أحد تلك القنابل النووية ولو بعد مليون سنة.. مجرد واحد آخر من  
العامة..

كان غيبا، فاجرا، شجاعا وكل شيء.. لكنه لم يستحق هاته الميته  
البشعة... لا أحد يستحقها...

ساورني بعض الرجس، هل هذا ما يعنيه أن تكون قاتلاً...؟

فالقاتل الوحيد هو الذي يمثل أمامكم ها هنا... لأنه كان جزءاً من  
حياتي ببساطة...

ثم تمالك نفسي..

فهناك ما يحتّم على المرء العيش...

لن يموت أحد قبل أن يؤدي دوره في هذه الحياة، ولم يمت أحد قبل  
أن يفعل ذلك...

نحن نولد لأن دورنا قد حان، نموت لأن دورنا قد انتهى...

هكذا وببساطة تستثنى ما نسميها بالصدف..

مات شارل لأنه كان صديقي، لأن أقدارنا تداخلت...

ثم سرت رعشة عنيفة في جسمي .. وفقدت على إثرها الوعي ...

انقطع حبل ذكرياتي للمرة الأخيرة ...

\*\*\*

اتفقد ضوء الشمس الصادر من النافذة... بالكاد أشعر بحلق أنفي،  
وأشعر بأن هناك بعوضة بداخل راسي ستدفعني للجنون...  
الصداع جزء من روتيني اليومي، فهو امارة على أنني استعدت وعيي،  
وهذا أسوء شيء قد يحدث لك في هذا العالم... شعرت بالملل  
وأحتاج إلى شراب، لا يوجد ما يفني بالغرض تحت سريري..

فقررت أن أقصد أقرب حانة لاستنشاق بعض العفن خارج غرفة  
الفندق... وحانة سيدوري ستلبي احتياجاتي..

ليس من عاداتي الشرب، كما أنه ليس من عاداتي أن أتصدى لميولي..  
فأنا ضحية الأخيرة ولا نية لي في مداعبتها.. فهي دائما ما تتحفني  
بقصص جديدة ترفع ستار الملل عني..

خرجت من الفندق ويمكنك تخيل المشهد كالتالي...

المشهد صامت تماما، تتحرك الكاميرا ببطء لتستقر في زقاق مظلم  
بينما أنا أتمشى في طريقي للحانة... ترتفع الكاميرا قليلا، وبدون  
سابق إنذار تنير إحدى أعمدة المصابيح المكان لأتمكن من رؤية  
تفاصيل الزقاق ...

في نهاية الممر ظهر هِر أسود من الأعين إلى نهاية الذيل يترنح أمامي،  
ويبدو أنه جريح... ثم سقط !

في اللحظة التي أردت فيها الإسراع له، انطفئ المصباح.. أصبح  
المكان أكثر ظلمة مما سبق والموسيقى في الخلفية متوترة...

أضاء المصباح من جديد ليُنير الموجودات لثواني أخرى..

ومن العدم وبدون مقدمات.. ظهر في المشهد حوالي الاثني عشر  
ديكا روميا يطوفون حول جثة الهر في حلقة شبه منتظمة ...



وقفت أتأمل المشهد للحظات، هالني مشهد أعينهم الدميّة والفراغ  
الذي يحيط بها، تجمدت مكاني للحظات ثم أظلم المشهد مجددا...  
ثم انار المصباح مجددا...

لا يوجد شيء، كانت رؤيا.. ويبدو أن هذه القصة لا تبشر بالخير..  
رفعت رأسي لأرى من أيقظني منها حتى اعتذر عن اصطدامي به،  
فهذا الأمر يحدث كثيرا من وقت لآخر.. لأجد نفسي في واقعا في  
مصيصة... فالشخص أمامي ليس وحيدا.. فبقدره قادر أجد نفسي  
محاطا بعصبة من المجانين التواقين لشيء أجهله، فأنا لا أملك شيئا  
لأقدمه.. ولدي إحساس يخبرني أنهم اثني عشر شخصا.. ولا  
تسألني كيف عرفت فأنا مشغول بدراسة الوضع الحالي.. يبدو ان  
القتال ميؤوس منه بالفعل فلست بجايمس بوند ومثل هذا الاحتمال

تجده فقط في استديوهات بوليوود لا غير.. ما يتبقى لي هو  
التفاوض... قلت لهم:

- عظيم!

استغرب كبيرهم، وقبل ان ينبس بكلمة قلت:

- لقد شعرت بالوحدة في طريقي للحانة، ويبدو أنني أخيرا  
وجدت بعض الرفقة... فما رأيك لو ذهبنا الى هناك لتسوية ما يمكن  
تسويته...

قال كبيرهم بنبرة توشي بالرفض:

- وما الذي يجعلك تظن بأننا سنقبل بعرضك كما لو أنك في  
موقف قوة!؟

- لأنك لا تعرف من أكون... ولما ستعرف سستمنى كما لو أنك لم تسمع بي يوما...

- هذا طريف، لأننا نعرف من تكون، وأنت تعرف بأننا نعرف.. كما أنك تعرف من نكون، فلا داعي للتعارف..  
ألسنا محقين؟

- أوه! في هذه الحالة يبدو أنك أمام خياران لا ثالث لهما...  
فإما أن تأخذ كلابك وتغرب عن وجهي كما لو أنك لم تسمع بي يو... تبا، لقد أعدت ما قلته سابقا.. وهو خيار غير وارد على ما يبدو... ما يضعنا أمام الخيار الثاني الذي هو مهمتك الأصلية بالفعل.. وهو خير لك، وإن كنت لا أحبه.. لكن ثق بأني لو خرجت حيا من هنا سأذيقك الجحيم بنفسي... لذلك تأكد من قتلي...

من كان ليتصور أنني سأموت بهذه الطريقة؟؟ رغم أن الأمر حدث في ثواني معدودة، لكن بالنسبة لي الوقت توقف حرفياً... توقفت كل نشاطاتي الدماغية.. لم أصب بأي جلطة في حياتي لكن هاته الأعراض مألوفة، أعراض يصاحبها شعور بالراحة والسكينة.. بالإضافة لذلك الضوء، لو كان مصدره الشيطان لعرضت روحي مقابل ثلاث أيام، ثلاث أيام فقط من حياتي... الملكة ماري قايت جميع ممتلكاتها مقابل لحظة.. فما الذي يمنعني من طلب ذلك أنا الآخر؟

لكنه مجرد ضوء.. بالإضافة لصدى بضعة أصوات...

- دكتور... دكتور... انه حي، انه حي... لن تصدق ذلك

لكنه يضحك...

غريب كيف ان خاطرة الضوء الذي يراه الجميع أثارتني وجعلتني  
اضحك، فكل من مر بتجربة الدنو من الموت يرى ذاك الضوء،  
وهناك حتى من يزعم رؤية يسوع وقد قال البعض أنه وحي إلهي..  
فالجميع يميزون كما تعلم ..

لكنه مجرد ضوء... ولا أدري حتى ما أنا فاعله بهذه الأيام التي  
طلبتها فهي والثلاثون عاما سيان...

تحسست جسدي داخليا، كل وظائفني تعمل، ما عدى عيني اليسرى  
وبعض الألم في مفاصل يدي، وهذا جيد، على الأقل تلقى الأوغاد  
بعض الضرب في مؤخراتهم... كبدي ليست على ما يرام، وهذا  
مألوف... عدت بوعيي للخارج، لأجد نفسي في المشفى..  
والمرضة ترمقني باشمئزاز واضح...

سألتها عما حدث له فلم تنبس بكلمة..

لم أفهم ما تكنه هذه النظرات العدوانية تجاهي، مع ترفع واضح  
يوحي به أنفها المنكمش كبصمات الأصابع بعد الاستحمام..

الاستحمام...!

رُغم أنّ رائحتي مقبولة بحكم أنّي يستحم مرتين أسبوعياً، إلا أن  
نظراتها ووجودها بحد ذاته، كانا يخترقان وجداني كله...

يبدو أن المجتمع من الصعب عليه تقبل أن متشرد يقاسمهم نفس  
الحقوق... رغم اني سأدفع ثمن هذه الحقوق لاحقاً..

أمسكت بيدها، وسحبته بشدة حتى أصبح وجهها مقابلاً لوجهي،  
كنت لأقبلها في ظروف أخرى... لكنها خائفة.. سيُزج بي في السجن  
بتهمة التحرش قبل ان أفكر بذلك حتى... أعينها من وراء  
العوينات تقولان بوضوح:

- ملاحمه مرعبة...

هذا ما تفكر به الممرضة... كما أنها لم تجسر على الصراخ فأنا أحكم  
جيذا على قصبتها الهوائية، حركة واحدة وستسمع تلك "الطق"  
المشهورة... مرت دقيقة، ثم دفعتها بنفس القوة التي سحبتها بها...

يا إلهي ما الذي يحدث لي!

حاولت الاعتذار لكن ما يخرج من فمي بين أسناني المضغوطة لا  
يشبه الاعتذار في شيء... قلت لها:

- لقد رحبت بنفس الشمس من مشرقها حوالي ثلاث آلاف  
وبضع مرة، أمضيت الثلث الأخير من حياتي أطوف  
الشوارع، اتخذت الطرقات والمعابد وحتى القبور،  
مساكننا...

صمتُ لفترة حتى أستعيد نفسي، ثم استنشقت بعض الهواء من  
الغرفة وهدأت نفسي، وقلت:

- ما أقصده هو.. حاولت قدر المستطاع أن أتقبل نفسي كما  
هي، واندمج مع الطبيعة او شيء من هذا القبيل.. كل ما  
سعيت اليه هو التمسك بما وصلت اليه لحد اللحظة...  
لكن هناك عقبتين.. فقط عقبتين... في طريقي للرضى  
الذاتي..

أولهما الصراصير، ما الذي بحق الجحيم كان يفكر فيه  
مهندس هذه المخلوقات عندما ابتدعها...؟

وثانيهما، هو هذه النظرات التي أتقزز منها أكثر من لوامس  
تلك المخلوقات، أكره هذا الشعور، أكرهه جدا.. عندما



ينظر لك شخص كأنه يتوقع منك شيئاً.. لا بل ينتظر منك

أشياء لا تستطيع القيام بها، أشياء لا تحبها، تجهلها...

لقد تركت الحياة العادية هرباً من لزوجة هذه النظرات،

ويبدو أن حياة التشرد لا تقل سوءاً عن تلك... بل أسوأ،

لقد خيبت أملهم... لا تزال حياً وبصحة جيدة بعد كل

تلك السنين وسط الصراخ.. الأوغاد...

كانت الممرضة على وشك أن تكسر حاجز ثرثري، إلا أنني كان

السباق لذلك، وضعت إصبعي على شفيتها بخفة، دنوت لها.. ثم

قلت لها:

- أما الوضع بالنسبة لك يا عزيزتي فمختلف، أنا أعرف

فحوى تلك النظرات.. فأنت لا تمقتينني أنا أعلم ذلك،

أنت تفعلين هذا مع الجميع... لأنك تفعلين هذا مع  
الجميع...

دفعني، وبدأت بالصراخ وقالت بصوت مرتفع:

- تبا لك ابتعد عني، هل أنت معتوه؟
- يا ليتني حصلت على دولار في كل مرة قيل لي ذلك..
- ما خطبك يا رجل، لقد تلقيت تسع رصاصات معظمها في  
مناطق حساسة... والآن تحاول مهاجمتي كيف يعقل هذا؟
- وهنا بدأت بالسعال بعنف، فلم أستطع كبت ضحكاتي.. وقلت:
- كان توباك ليفخر بهذا، انا ناج لعين!

- دخل علي اثنان من رجال شرطة أحدهم يوجه نحوي فوهة

مسدسه، بالإضافة للطبيب... كعادتهم دائماً ما يصلون

متأخرين، فقال صاحب المسدس:

- سأؤكد من تذكر كل ما حدث في تقريرتي، يا بني أنت في

مأزق كبير..

- ومن أنت؟ وكيف يمكن هذا...؟!؟

- هذا كل ما يمكنني التصريح به حالياً، كل ما يمكنك فعله

حاليا هو التركيز على الشفاء الآن... وفقط...

قلت بينما أشير للطبيب وممرضته التي يبدو أنها ستتهار في أقرب

فرصة:

- لكن هذه مهنة هؤلاء.. لما علي إجهاد نفسي بأشياء لا يدي

فيها...

- لكنك فعلت ذلك بالفعل، أنت الآن في غرفة التشريح..

آخر محطة قبل مصلحة حفظ الجثث ومن ثم المقبرة التي

يبدو أنك لن تدفن فيها... وتفوح منك رائحة الموتى، لا

أعرف ما الذي حدث بالضبط لكنك عدت، بعد أن توقف

قلبك لثلاث أيام...

انه العقار... انفلتت من فمي هذه الكلمة بينما كنت في لحظة

شروء...

- ماذا قلت؟

- انس الأمر...

ويبدو أنه لن ينسى، لهذا عدت للنوم، لا أعرف كم لبثت الى ان

شعرت بيد تهزني لتوقظني من سباتي، نقلوني الى غرفة أخرى لا

تفوح منها رائحة الموت... ويبدو أنه لدي زائر.. ومن المرجح أنه

غير مرحب به... فاحتمال ان تتحقق المساواة في هذا العالم أكبر من  
احتمال زيارة أحدهم لي...

تطلعت لصاحب اليد وتفحصت ملامحه... لديه وقفة توحى بأنه  
عميل مخبرات وبطاقته التي وضعها أمام وجهي تؤكد ذلك..

غير مرحب به... هذا ما قلته لنفسي بينما هو يحاول تقديم نفسه لي...  
لكن لم أهتم، وقلت له:

- ليس لدي ما أقوله... ليس لي يد بأي توجهات نازية قد تهتم  
الموساد...

- ليس بالضرورة، لكن ماذا عن روبن هود؟

- لم أطعم فقيرا قط!

- أرايت، لقد نسيت الجزء الأهم.. أفهم من كلامك أنك  
سرق شيئا بالفعل...

- جميعنا فعلنا، لتوفير لقمة كما تعلم.. لكن ملاحقة المشردين

من صلاحيات الشرطة، ما الذي دفعك الموساد لتكفل

عناء القدوم الى هنا!

- لنرى، هناك شيء يتعلق بمنشأة إسرائيلية... معقد غير

مكتمل تم سرقة من تلك المنشأة وبطريقة ما هناك أحد ما

اكتشف التركيبة النهائية، واحتكرها لنفسه وبدأ يبيع العقار

بأسعار جنونية...

- أفهم من كلامك أنك تقصدني؟

- ومن غيرك؟

- هراء، أتمنى لو كنت بربع ذلك الذكاء... حاول غيرها...

وكن مباشرا حتى أنكر كل ما ستنسبه لي.. ضف لذلك،

ليس من المفترض ان توجه بوصلتك نحو من فعلو هذا

بي، تسع رصاصات يا صاح.. تسعة! قد تجد مرادك  
هناك...

- أتقصد هؤلاء؟

قال ذلك ومرر لي جريدة وإذا بمقال تحت عنوان مكتوب بالبنط  
العريض... مقتل جماعة بطريقة وحشية... أخذت وقتي في قراءة  
ذلك المقال... ويبدو أن جايسون اكس أقام حفلة هناك، رؤوس  
مقطوعة، عظام محطمة، نظرات مذعورة وان صعب معرفة ذلك  
لأنها نُزعت من محاجرهما.. والكثير الكثير من الأشلاء.. لا شيء  
يشير للقاتل... لكن أنا متأكد من أن هذه المقالة معلقة في جدار قبوه  
بينما هو ينظر اليها منتصباً بفخر... وضعت الجريدة فوق المنضدة  
التي بجانب سريري.. ثم سألته:

- من فعل هذا؟

- أنت...

- غريب، من مخترق منشآت الى وولفرين.. لقد أكدت لي

أنك أخطأت في الشخص، كان يمكن أن يحدث ذلك لو

اصطحبت كلبي معي، كل ما أعرفه هو أنني توجهت لحانة

سيدوري وحيدا قبل ان تعترضني مجموعة من الحثالة..

وهذا كل ما أتذكره... ربما قد أغير رأيي لو أتيت لي

بسيجارة، وربما لن أفعل من يدري...

- إذا كيف تفسر بقاؤك على قيد الحياة؟

- من يدري، يبدو أن الله يحبني... فرحته وسعت حتى

الطالحون من أمثالي...

- هل علي تذكيرك بما قلته قبل ثلاث أيام؟



- مهلا هل نمت لثلاث أيام أخرى؟ اللعنة، فليخرجني أحد من هنا على أحدهم اطعام الكلب...
- للأسف لن تخرج من هنا أبدا، كما أننا ضننا أنك مت، مجددا... لكنك لم تفعل، وحضرة الشرطي كان دقيقا...
- لقد قلت العقار، وقد سمعك كل من في الغرفة، نفس العقار الذي سرقت من دولتنا... ما يفاجئني ليس بقاؤك على قيد الحياة، ولا تورطك في المتاجرة بالعقار في السوق السوداء بأسعار أعلى من الذهب ومع ذلك لا زلت تعيش عيش المشردين... ولا أستغرب حقيقة أن أحدهم أراد قتلك من أجل الحصول عليه.. ما يفاجئني حقا هو حقيقة أنك فعلت في عقد واحد ما لم يفعله خبراءنا منذ قرون...

حجر الفلاسفة لقد أحطت به علما وأحسن صنعته.. لقد

منحت الخلود، وتحولت لوحش نتيجة ذلك...

- أنا متأكد من أني توجهت للبار وحيدا قبل ان تعترضني

مجموعة من الحثالة.. وهذا كل ما أتذكره... لا أملك أي

فكرة حول لغو هاري بوتر الذي تتفوه به... والآن إذا كان

لديك شيء لتتفوه به فقله للمحامي خاصتي...

- لكنك لا تملك محاميا خاص بك

- تماما... والآن أغرب عن وجهي...

- سأعود، ولما أفعل.. ستذهب معنا..

- المكان الوحيد الذي سأقصده هو ذلك البار، وحيدا...

وربما سأخذ كافكا معي هذه المرة...

- من؟

- آه إنه كلبى، من سلالة هاسكى...

- فيم قد يهمنى معرفة ذلك، ومن قد يطلق على كلبه هذه التسمية...

- ذلك الحيوان لم يستطع استيعاب اسمه السابق... لقد

أطلقت عليه تسمية كلب الجحيم سريروس، واضطرت

لتغيير الاسم فيما بعد.. لكنه لم يتقبل اسم كافكا أيضاً،

ولربما هو متخلف.. وهو لم يأكل منذ ست أيام، لربما

سيروقه منظر طفل يهودي محشور في زاوية كأرنب مسعور

ذنبه الوحيد أن أبيه لعب بالنار الخطأ... هذا ان كان لليهود

خصي... والآن هل علمت فيما قد يهمنى معرفة ذلك؟

لم تتغير ملامح حطب الفرن أمامي... يبدو أن الإشاعة صحيحة،

بالكاد يمكنهم التكاثر... ثم قال:

- سأؤكد من تذكر ذلك... وسأجعلك تتمنى لو أن الشاحنة

اختارتك بدل صديقك قبل تسع سنوات! أراك غدا!

\*\*\*

ماذا كنت لتفعل لو وجدت نفسك بين مطرقة المخابرات وسندان  
المافيا... مرتحلا بين أيادي القدر وبرائن البشر لينتهي بك المطاف  
محاولا تخيل أبشع وسائل التعذيب التي ستسلط عليك باعتبارك  
دمية خالدة لا حول لها ولا قوة ذنبها الوحيد سوء حظها في هذه  
الحياة...

أن أعيش...

هذا كل ما أردته، المتعة ضالتي فأين وجدتها فهي لي.. حسنا أعترف  
أني تماديت... ولقد مات كلبي جراء ذلك، حسب ما تم إخباري به  
مؤخرا..

رفضوا اخراجي من هنا، لكنهم أشفقوا علي ومنحوني بعض  
المعلومات عن كلبي الذي تم قتله بوحشية... بالإضافة لمعطفي...  
كان في حالة يرثى لها.. تسع ثقوب... كما طلبت من أحدهم ان

يحضر لي مشغل موسيقى وبعض السجائر.. في انتظار أن يتم نقلي  
من هنا الى وجهة مجهولة..

لقد حصلت على كل ذلك هذا مقابل بعض المعلومات التي وعدتهم  
بها..

شغلت الموسيقى، فحين يتعذر السكوت، فإن الموسيقى تقول ما لا  
يُقال..

وأخرجت من الحافظة أحد الأقراص المضغوطة بعناية، كأني أقوم  
بأحد الطقوس وثنية.. وها أنا أقدم القربان لفم الوحش برهبة...  
هذا الوحش سَيَسْتَنْطِقُ روحك الخرساء وسيَكَلِمها تكليماً...  
إنها أوبرا... لفاغنر..

واستكمالا للطقوس، اعتصرت سيجارة بين شفاهي وتحسست  
جيب المعطف الداخلي... وأخرجت منه ساعتى الذهبية.. كانت لا  
تزال هناك وهذا مطمئن...

من إصدارات شركة كرونوسويس (chronoswiss) مصنوعة  
حسب الطلب، ولن تجد مثيل لها في السوق... مزودة بسلسلة ذهبية  
هي الأخرى، ليتم بواسطتها ربط الساعة مع بطاقة المعطف  
الداخلية.. لو نظرت في الغطاء الأمامي للساعة لبرز لبصرك صليب  
متساوي الأطراف من الزبرجد النقي، ولا تحتاج لعين بصيرة  
لتلاحظه.. لكن ما قد يخفى عنك هو نقش الأفعى تحت الغطاء لما  
تُفتح الساعة، أفعى يَعُوص معرفة نوعها تلتهم ذيلها، والأشد مع  
بعض الكتابات المزخرفة... وهذا شيء لم أطلبه بتاتا، لكن ما باليد  
حيلة.. لقد أعجبني حقا...

تشير عقارب الساعة للرابعة والربع، مساء... أي أنه تبقت أربع ساعات فقط حتى يصل وغد المخابرات اليهودي.. هذا ان اخذنا التوقيت الذي وصل فيه البارحة بعين الاعتبار..

أنا أحفظ أسرار هذه الساعة جيدا، فإن تلاعبت بالتاج البارز من حواف الحافة ستتحرك عقارب الساعة كنتيجة حتمية.. يمكن لأي أحد فعل ذلك... التلاعب بعقارب الساعة حيث لا يستطيع العقرب الأقصر مجاراة سرعة أخيه الأطول بينما يتناوبان على زيارة أرقام الميناء المدرج رقما رقما، درجة بدرجة...

ولما يصل أقصر العقارب للسادسة يتوقف عن الحركة ولا يتزحزح من مكانه... ثم يتبعه العقرب الأكبر ويتوقف في نفس المكان...



وإن كنت مُلماً بعلم الساعات ستدرك أن هذا مستحيل، يبدو كتمرد  
على سلطة التاج والاصابع التي تتلاعب به... وإذا بالقافزة -عقرب  
الثواني- تتحرك..

وهذا أعجب، فقد كانت متوقفة كل هاته المدة في خط البداية كمن  
ينتظر شارة الانطلاق... لكن أنا من صممتها فلا داعي للاستغراب  
مطلقاً.. والآن لنتظر..

ثانية..

خمس ثواني..

عشرة..

عشرون..

ثلاثون ثانية، ثم يتوقف العقرب، ليلتحق برفاقه...

تشكيلة مثيرة للاهتمام، فلو اخذت أي ساعة وأدرت دولاب  
العقارب يدويا، فلن تلتقي العقارب الثلاثة عند الدرجة الثلاثون  
ولو أدرتها الدهر كله...

وهكذا، في اللحظة التي تمردت فيها مسننات الساعة، التحق التاج  
بالركب وسقط من مكانه...

تمت المهمة، ثم هززت الساعة بحذر على راحة يدي، وخرج من  
الثقب العقار المنشود على شكل سبع أقراص لا يتجاوز قطرها  
نصف السنتيمتر...

هذه الأقراص أثمن من ذهب الساعة، ومن زبرجها، بل أثمن من  
الوقت نفسه...

والآن إذا واجهتكم مشكلة لن تستطيعوا حلها بالطرق التقليدية،  
كل ما عليكم فعله هو الرفع من مستوى هذه الطرق التقليدية..  
أنا في حالة حرب، وفي مثل هذه الحالة يوجد نوعين من الجنود..  
هناك من دفعوا بدمائهم.. عرقهم ودموعهم في سبيل مُثل عُلّيا  
قاتلوا من أجلها باندفاع حتى الرmq الأخير ثم ماتوا جراء ذلك...  
وهناك من عجلوا من ذلك الرmq، وضعوا فوهة المسدس في  
أفواههم، أو في رؤوسهم ثم أطلقوا النار... لقد اختصر ذلك الكثير  
من جنون العالم في حيواتهم... هم يدركون أن أشياء مثل المروءة،  
الشرف، عدم الاستسلام والشجاعة.. ستفقد قيمتها لحظة الموت...  
إنه كما قال جاك سبارو، هذا العالم لم يتغير، إنما شُحّت أسباب  
العيش..

بالطبع كنت لأفضل البقاء في منزلي، أشرب الجعة وأتفقد أحوال الحرب من الراديو... فما الخطأ في أنك لا تريد الموت...

لكنه خيار غير وارد لي حالياً... فما أنا بجندي، لكننا نتشارك نفس الظروف حالياً.. والبقاء هنا والقتال أمر وارد، فأنا أملك من المال ما يكفي لشراء الفندق ومن ثم النزول فيه كزائر... ومن المعارف ما يكفي لحذف جثة وجدتها تحت سرير من الوجود... لكن القتال متعب...

إنه الانتحار إذا..

فان لم يدفعكم اليأس لقتل النفس، سيدفعكم التفاؤل لذلك... فقط فكرو بأحد تلك الطرق وافعلها آمليين بحياة أفضل، أو بمكان أفضل...

ابتلعتها كل تلك الأقراص، وهذا كفيلا بإرسالى للسعير...

عندما تنام تتحرر من جسمك، لترتقي الى عالم أكثر جموحا، عالم  
الأحلام... ولتنجو من ذلك العالم عليك بشراء حزام الأمان...  
الرابط الذي يقيدك بجسدك ويرشدك للعودة، كل ذلك مقابل  
النسيان... ثمن مناسب ندفعه كل يوم...

ويحدث أن ينام البعض بدون عودة...

أي يموت..

التركيبة التي طورها تمنحك شرف عيش هذا العالم بتفاصيله وان  
كان ليس بنفس الحدة... حالة من الحرمان تفقد بها كل علاقاتك  
بالمموس.. ما يجعلك ترتد الى ذاتك، فتستبدل بذلك خوارج

وعيك بدواخل تجربتك... بذلك تحقق حلم يقظتك الخاص وهكذا  
تخلق عالما خاصا بك...

عالم أفضل يستحق أن يعيش فيه المرء...

\*\*\*\*

هذا رائع...

إنه قطعاً ليس العالم الذي أردته.. تموت لتجد نفسك مغموراً تحت الرمال، تناضل لتخرج نفسك من هذا الوضع.. وهنا تجدني أتساءل، من الذي قد يدفن رجلاً حياً بحق الجحيم!؟

تذكرت من أكون.. العشرات من الناس مستعدون لفعل ذلك، يتحرقون شوقاً لرؤية هذا المشهد... مشهد موتي.. لكن لن يكون لهم نصيب من ذلك.. فأنا كما تعلمون مقاتل لعين..

تذكرت من جديد من أكون، فلست بذلك المقاتل الذي أزعم، الوضع مريح هنا... قليلون من يتاح لهم ترف موقفي هذا... كما أن الحال ميؤوس منه بالفعل... فالخروج من القبر لطالما صوروه على أنه سهل في أفلام الزومبي أو ما شابه.. فقط ترفع يداك عالياً من تحت الأنقاض، تنفض التراب عن منكبيك وتسير في الأرض بحثاً

صرار الحانة ----- 63

عن الأدمغة.. إنهم يفعلون ذلك غريزيا وبعضلات متعفنة فما الذي  
يمنعني أنا من ذلك؟ فحتى ليو من فيلم الآيب فعلها وهو نصف  
مشلول..

لكن الحال مختلف ها هنا..

لا يجد الهواء طريقا إلى رئتي، ولا ملك الموت وجد إلى ذلك  
سبيلا... والضغط شديد ولا أستطيع تحريك عضو واحد من  
جسدي والرمال في كل مكان... ما يجعلني في حالة اختناق أبدي...  
يخيل لي أنني أسأت إلى أحد آلهة اليونان حتى انتهى بي المطاف  
هكذا...

وهكذا بعد أن مضى من الزمن ما شاءت آلهة الزمن أن يمضي...  
ومن حيث لا أدري، أتت اللحظة التي تظهر فيها الآلة حاملة سلة  
الإله... فقد بدأت الرمال بالتحرك كأنها كانت تنتظر إشارتها



بصبر... ولك أن تتخيل مشهد الرمال وهي تنساب وتنحسر عن  
جثتي بسلاسة جيوش النمل وهي تأوي إلى أوجارها... وتراصت  
ذرة ذرة مشكلة فقاعة تحتويني بداخلها بينما ترفعني الى أعلى...  
الرؤية منعقدة تماما داخل هذا الحيز الضيق الذي أعاد لي شيئا من  
حواسي، ما أتاح لي حرية الوقوف والحركة في نطاق محدود فوق  
أرضية صلبة... وانتابني شعور بالغثيان، فهناك ما يوحي بأني  
أرتفع، لكن الحواس أبت تصديق ذلك وأنا أصدقها، فأنا ثابت في  
مكاني هذا فأنى لي بهذا السمو المفاجئ...؟

مرت علي مدة على هذا الحال الى أن أتى الفرج...

إذ بي أسمع بداخلي مناديا ينادي من الخارج ويقول..

- أيها الجسم الأبيض، عليك بإغلاق عينيك...

وما كان علي الا السمع والطاعة... أغمضت عيناى، وإذا بكيان  
يدفعني إلى الخارج... ثم عاد نفس الصوت ليقول: النور بعد مغيب  
مديد سيخترق غشاء عيناك، ويتسرب اليهما بعنف... اتق نارها،  
وافتحهما بحكمة..

وقد كان على حق، فكان بالإمكان وبوضوح رؤية شعيرات جفوني  
الدموية، وأظن أنى فهمت مقصده... فقد اختبرت هذا الشعور  
مرارا... أن تحتجز نفسك فى غرفة مظلمة لأسابيع، ثم تستجمع  
شتات شجاعتك لترى أشعة العالم الخارجى له أضراره... ففعل  
ذلك بدون تدرج قد يعرضك للعمى.. لهذا فتحت عيناى ببطء  
شديد.. ولم يخلو ذلك من نار وقادة تبطش بمحاجري... لكن ذلك  
أهون من البقاء محتجزا تحت الرمال...

وأخيراً، انتقلت من العمى الأسود مروراً بالعمى الأبيض إلى صور  
ومشاهد ذات معنى.. وإن كانت أبعد ما تكون إلى المعنى الذي  
أرجو..

فقد كنت على حق..

إنه قطعاً ليس العالم الذي أردته...

عالم سقيم.. له نفس الخصائص الفيزيائية التي اعتدناها... أعني  
بذلك أني أتمشى، وأتنفس، فأنا حي أسعى...

ولولا هذه الرمال السوداء المتحركة الشبيهة ببرادة الحديد التي تحيط  
بي من كل حذب وصوب ما أحسست بالفرق أبداً... وكأي فلاة  
تحترم نفسها لا يبدو أنه تعترف بالحدود أبداً، فهي تمتد أمامي إلى أين  
يفنى كل موجود.. السماء تبدو أقرب مما ألفت، وكأنها سقف ممتدة

امتداد الأرض التي أدب عليها وموازية لها.. مُرّصة بأحجار من  
شتى الصنوف... أحجار باركت الأرض وما عليها بنورها... وما  
يؤكد لي أن عيناى لا تخدعاني، هو ما يرفع هذه السماء... عماد  
باسقة متباعدة ومنتشرة في كل البقاع يمكن رؤيتها من بعيد، تمتد من  
الأرض وصولاً إلى السماء المزعومة...

وأحد ركائز هذه السماء مائلة خلفي، من حيث خرجت قبل  
لحظات، وبشيء من المنطق نستخلص أنها تمتد للأسفل أيضاً.. هذا  
كل شيء...

ما عدى ذلك لا يوجد شيء جدير بالذكر... لا بهائم لتؤكل، ولا  
منايع تروي الظمأ... ولا وسائل يزهد بها المرء روحه لغاية في  
نفسه.. لا أمل، ولا مهرب.. لهذا رميت كل ذلك ورائي.. وبدأت

المسير مدفوعا بغريزة البقاء وكي قناعة بأن جميع الاتجاهات لن  
توصلني لشيء سوى الرمال...

===

مرت الأيام ولا جديد يذكر... العالم هنا أقرب للديار منه الى  
الجحيم... منطقه أقرب للعالم الذي خلقه جول فيرن تحت سطح  
الأرض في روايته الشهيرة، ما عدى أنه موحش وكل شيء فيه  
أسود... فلم يطل الحال بي حتى اعتدت الأمر برمته...

- بل أنت أعلاها يا أيها الجسم الأبيض...

قال صوت جهوري لم أتين مصدره، ما يذكرني بالصوت الذي  
سمعته سابقا... فرددت بعفوية ملؤها يأس دفعه الملل..

- من أنت.. وأين أنا؟

لم يأتي الرد... فتابعت المسير.. لا دراية لي بالوقت هنا ولا  
الاتجاهات... فاستنجدت بالأعمدة في سيري..

وكانت الخطة كالآتي..

أتقصى أقرب عمود من موضعي، واتجه إليه... حين أبلغ مرادي أتجه  
إلى العمود التالي، وهكذا دواليك... وهذا ما فعلته... ولم يخفى عن  
بالي حساب المسافة بين العمود والآخر... فكانت في حوالي الألف  
وتسعمائة خطوة... فمهندس هذا العالم لم يترك موضعا للصدفة...  
وهذا ما حرصت عليه أنا الآخر... فكنت أصبغ العمود تلو الآخر  
بدمائي حتى أتأكد من أني لن أعود إلى موضعي السابق حين أستفيق  
من النوم، فمتاهة الصحراء لا تعترف بمنطق الاتجاهات... فكان  
علي الاهتداء بمرجع يعينني على ذلك، وكانت الأعمدة خير  
معين... ورشدت إلى خدعة الدماء بعد أن نفذت من كنانتي كل

الحلول... فتشهد الآلهة أنني حاولت اللجوء الى حلول أقل دموية..  
لكن الآثار التي خططتها بيدي فوق الرمال كانت تُمحي في الحين،  
كأن الرمال كائن أبى التحريف... ونفس الشيء كان يحدث لجراحي  
إن كنت تتساءل عن حالها، فكانت تلتأم وتعود لسابق عهدها حين  
أفقد الوعي جراء فقدانها... وكنت أعاني الويلات في كل مرة...

وهكذا بعد ان التزمت بالخطئة... حثت الخطى نحو أقرب عمود،  
وإذ بي ألتقط رائحة الدماء التي كنت أترقبها مع كل خطوة، وهذا  
دليل على أنني عدت أدراجي دون وعي مني... استدرت، وتوجهت  
إلى العمود الذي جئت منه... أستطيع تمييز رائحة الدماء التي  
خلفتها ورائي وهي أقوى كونها حديثة... وهذا يعني أنني عدت إلى  
موضعي السابق... والعمود الآتي، سيكون طاهرا من دمائي لا  
ريب... لكنه لم يكن كذلك... فالرائحة موجودة... تطلب مني

الأمر عشر أعمدة مررت عليها ذهاباً وإياباً لأعني حقيقة أن طريقي  
المستقيم كان عبارة عن دائرة فوق الأرض... وشيء ما يخبرني أن كل  
الطرق تؤدي لنفس النتيجة... لقد ضللت سواء السبيل..  
إنه الجحيم الحق إذن...